

حول التعليم في أوغاريت

جبرائيل سعادة

المكتشفات والدراسات الأثرية تجود علينا بين حين وآخر بمعلومات تبين دور سورية في إحدى نواحي تطوير الحضارة . وها أن قطرنا يبرز في مجال التعليم والتدريس ، وذلك بفضل ثلاثة مواقع أثرية أسفرت عن عدد كبير من الرقم الفخارية المكتوبة ، ألا وهي موقع تل مردوخ في سورية الوسطى الذي يضم أنقاض مدينة أيبلا وموقع تل الحريري على الفرات ، في الطرف الشرقي من باديتنا وقد أظهر فيه التنقيب بقايا مدينة ماري وموقع رأس الشمرة على الساحل حيث ترقد مدينة أوغاريت .



عثر في أيبلا على ما يقارب ستة عشر ألف رقيم مكتوب (١) ، تعود إلى الفترة الواقعة بين ٢٣٥٠ و ٢٢٥٠ قبل الميلاد ، ومن بين هذه المجموعة الضخمة عدد من الوثائق هي عبارة عن تمارين ووظائف مدرسية يحمل كل منها توقيع الطالب الذي كتبها وتوقيع أستاذه وهذه الوثائق هي أقدم نصوص عن التعليم والتدريس ظهرت في العالم . وإلى الفترة نفسها أيضاً وثائق معجمية ولفظية تدل على الاهتمام ذاته منها قواميس تتقابل فيها مفردات من اللغة السومرية القديمة ومفردات من اللغة الأيبلائية المحلية وهي أقدم قواميس ظهرت في العالم حتى الآن .

وفي ماري تم اكتشاف حوالي عشرين ألف رقيم فخاري مكتوب (٢) وفي القصر المائد إلى الفترة الأخيرة من تاريخ المدينة ، أي إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وجد المنقبون قاعتين كانتا مخصصتين للتدريس تحوي كل منهما صفوفاً من المقاعد المصنوعة من القرميد المشوي ويتسع كل مقعد لطالب واحد أو لطلابين أو لأربعة طلاب ، وعثر بالقرب من المقاعد على بعض أدوات الكتابة وعلى أوعية فيها عدد كبير من الصدف كان الطلاب يتعلمون بواسطتها الحساب .

أما موقع رأس الشمرة (٣) ، حيث تجري حفريات منذ عام ١٩٢٩ ، فهو عبارة عن تل يتألف بكامله من أنقاض المدن التي تعاقبت في المكان . ان أعمال السبر التي نمت في أعماق التل دلت على أن أقدم تجمع سكني تواجد هنا يعود الى الألف السابع . أما الحفريات المنظمة فهي تجري في الطبقة العليا حيث كشفت عن مدينة تعود الى عصر البرونز الحديث ، أي الى الفترة التي تمتد من ١٦٠٠ حتى خراب المدينة النهائي حوالي سنة ١١٨٥ قبل الميلاد (٤) لا ندري بالضبط الى أي عهد حملت المدينة اسم أوغاريت ، انما نستطيع أن نؤكد بسبب وثيقة اكتشفت في كل من موقع « أبو صلابيخ » في العراق وموقع ايبلا أنها كانت تحمل حتماً هذا الاسم في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد . وقد عثر في الطبقة العليا من رأس الشمرة على حوالي أربعة آلاف رقيم فخاري مكتوب (٥) تعود الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، وفُرت لنا العديد من المعلومات في مختلف المجالات فهناك نصوص ميثولوجية ودينية وأدبية ودبلوماسية واقتصادية وحقوقية وإدارية وهناك نصوص لغوية ومدرسية تساعدنا على التعرف الى التعليم في أوغاريت ، موضوع بحثنا هذا (٦) .

كانت أوغاريت ، في زمن الرقم المكتوبة أي في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، عاصمة مملكة تمتد من الجبل الأقرع شمالاً حتى نهر السن جنوباً وتحدها شرقاً سلسلة الجبال الساحلية ، محتلة هكذا البقعة التي تشكل اليوم محافظة اللاذقية . كان الكنعانيون يؤلفون معظم سكانها ؛ والشعب الكنعاني من أهم الشعوب الذين قطنوا سورية في الماضي وبنوع خاص المنطقة الساحلية وقد أطلق عليه الاغريق في عهد لاحق اسم الشعب الفينيقي غير أننا لا نرى أي سبب لأن يلقب هذا الشعب بغير الاسم الذي كان يطلقه هو على نفسه . وسنرى أنه كان في أوغاريت الى جانب الأغلبية الكنعانية أناس ينتمون الى شعوب أخرى .

ان الحفريات التي أجريت ولا تزال تجري في أوغاريت لم تسفر حتى الآن عن اكتشاف مدارس أو أي بناء أو قاعة خاصة للتعليم كما كان الحال في ماري . غير أن هناك شواهد عديدة تدل على نشاط مدرسي مكثف ولدينا أكثر من قرينة على أن هذا النشاط كان يتم في القاعات المعدة لحفظ الأضابير وفي المكتبات . ان معظم الرقم المكتوبة قد اكتشفت على شكل مجموعات وكل مجموعة تؤلف إما مكتبة أو ديواناً للأرشفة أي الأضابير . والمكتبة اما أن تكون تابعة لمؤسسة دينية أو لأحد الأفراد وقد تم حتى الآن اكتشاف عدة مجموعات هي : مكتبة الكاهن الأكبر حيث وجدت الملاحم والأساطير ، مكتبتان لكاهن آخر في الحي الممتد جنوب الأكروبول ، مكتبة النصوص الأدبية في الخندق الجنوبي ، ستة دواوين للأضابير في القصر الملكي ، ديوان للأضابير في القصر الجنوبي . وفي الحي الفخم الممتد شرقي القصر الملكي عثر على مكتبتين خاصتين وعلى ديوان أضابير خاص . ان كل الوثائق ذات الطابع المدرسي ظهرت في القاعات المخصصة لهذه المجموعات وكذلك بعض الأدوات الكتابية كالمنخز أو المنقاش وهو القلم الذي كان يستخدم لحفر الاشارات المسمارية في الرقم الفخارية . ان أهمية التعليم غير مرتبطة بالبناء الذي يجري فيه ، ونحن نعلم مثلاً أن سقراط كان يلقي تعاليمه على تلاميذه في

الطرق والحوانيت كما أن أفلاطون كثيراً ما كان يحاور تلاميذه وهو يتنزه معهم في الحدائق . ففي قاعات المحفوظات كان الكاتب (SCRIBE) الأوغاريتي يقضي معظم وقته ويقوم بكتابة الرقم الفخارية ثم يصنفها ويرتبها على رفوف وفيها أيضاً كان يزاول دوره كمدرس (٧) .

ان الكاتب هو العنصر الأساسي في موضوعنا وحوله يدور كل ما يتعلق بالتعليم في أوغاريت . كثيراً ما تعتبر بعض الحضارات الأخرى أن الكاتب هو مجرد تاسح ، يحفر على الرقيم نصوصاً تعطى له أو تمنى عليه . أما في أوغاريت فدوره يبدو أكثر أهمية ونراه يحتل مركزاً مرموقاً في المدينة وأحياناً في البلاط الملكي وقد عرفتنا النصوص أسماء بعض الكتبة ويمكننا أن نستنتج من المكتشفات الكتابية في رأس الشمرة الأمور التالية :

— ان الكاتب الأوغاريتي يقوم فعلاً بدور المعلم ويهتم بتعليم الكتابة .

— ان الكاتب الأوغاريتي ذو ثقافة عالية، ينظم وثائق موسوعية ومعجمية تتضمن معلومات هامة في ميادين مختلفة ونذكر بالمناسبة أننا نراه في بعض الرقيم يضيف الى جانب توقيع عبارة « خادم نابو ونيسابا » وكانا في ميثولوجيا بلاد الرافدين إلهي البحث والمعرفة .

— ان الكاتب الأوغاريتي يبذل جهداً ليتعلم اللغات الأجنبية ولكي يعلمها الى طلابه فسنرى كيف أن الضرورة كانت تفرض عليه وعلى طلابه أن يكونوا ضالعين في بعض هذه اللغات .

— ان الكاتب الأوغاريتي كان متضلعا فيما نسميه في عصرنا « علم الكتابات » EPIGRAPHIE ويعود لأحد الكتبة أو لمجموعة منهم الفضل في ابتكار طريقة جديدة في الكتابة حوالي سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وهي الطريقة الأبجدية .

لا شك في أن الكاتب الأوغاريتي قد اهتم قبل كل شيء بلغته أي باللغة المحلية التي كانت تتكلمها الأغلبية الكنعانية القاطنة في المدينة وهي من اللغات الثلاثية (٨) . وفي رأينا يمكن أن نطلق عليها اسم « اللغة الكنعانية » ما دامت هي التي كان يتكلمها الكنعانيون ، غير أن الأوساط العلمية تطلق عليها بصورة عامة اسم « اللغة الأوغاريتية » . هي قريبة كل القرب من اللغة العربية من حيث التراكيب وقواعد الصرف وخاصة من حيث المفردات ، اذ يوجد فيها حوالي ألف كلمة هي نفسها في اللغة العربية ، فاذا علمنا أن الأسماء المعروفة حتى الآن في الأوغاريتية ، باستثناء الاعلام ، يبلغ عددها ١٢٧٦ كلمة (١٠) ، فتكون المفردات المطابقة للعربية تشكل أكثر من ثلثي مفردات الأوغاريتية . كما أنه تبين أن بعض الكلمات الأوغاريتية توجد لا في اللغة العربية الفصحى ، بل في اللهجة العامية الدارجة في الساحل السوري عامة وفي مدينة اللاذقية خاصة (١١) .

غير أن اللغة الأوغاريتية لم تدون قبل الرحلة التي نحن بصدها ، أي قبل مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد . في مطلع هذا القرن كان الملك نقماد الثاني قد أمر بتدوين القصائد الدينية التي كان بعضها ينشد في المعابد باللغة المحلية وتتوارث شفويّاً من جيل

الى جيل ومن ثم أخذت أهمية أوغاريت السياسية تزداد فكثير تبادل الرسائل الدبلوماسية والتجارية بينها وبين البلاد المحيطة بها . فأخذت الدواوين الرسمية تنظم وبات من الضروري ايجاد طريقة لتدوين اللغة المحلية وتدريب الطلاب على كتابتها وترجمتها الى الأكادية التي كانت اللغة المستعملة في العلاقات الدولية وكذلك في ترجمة النصوص الأكادية الى اللغة المحلية .

ان الكاتب أو الكتبة الذين أرادوا عندئذ ايجاد طريقة لتدوين الأوغاريتية وجدوا أنفسهم في حيرة . فالى أية طريقة يا ترى يلجؤون ؟ ... كان العالم المتسدين يستعمل آنذاك طريقتين في الكتابة : الطريقة الصورية أي الهيروغليفية السائدة في مصر حيث كانت الاشارة تمثل كلمة كاملة والطريقة المسمارية الصوتية السائدة في بلاد الرافدين حيث تمثل كل اشارة مقطعا صوتياً . انما تحتاج الطريقتان الى مئات الاشارات مما يجعل استخدامهما أمراً عسيراً وشاقاً ، فاذا وجب اختراع طريقة جديدة فلتكن سهلة وبمبسطة . ومن جهة أخرى رأى المخترع أو المخترعون أن الاشارات المسمارية أكثر صلاحية من الاشارات الهيروغليفية لأن حفرها على الرقم الفخارية سهل . أما المصريون فكانوا يرسمون الاشارات الهيروغليفية على ورق البردي الذي يمكن حفظه في أرض جافة كأرض وادي النيل ولا يمكن حفظه في أرض رطبة كأرض سورية . فوق الاختيار على الاشارات المسمارية على أن تجرد من قيمها الصوتية .

هنا يجب أن نتوقف عند تلك اللحظة التاريخية من مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد والتي تفتقت فيها عبقرية كاتب أو مجموعة كتبة من أوغاريت . لقد بدأ استعمال الطريقة المسمارية الصوتية في بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد وخلال أكثر من ألف سنة لم يدر في خلد أحد أنه بالامكان ايجاد كتابة تمثل كل اشارة فيها لا مقطعا صوتياً بل حرفاً واحداً كما هو الحال في أبجدياتنا الحديثة . حتى هذه اللحظة ، كان المقطع الصوتي يؤلف بنظر الكتبة عنصراً ثابتاً غير قابل للتجزئة شأنه شأن الذرة . ونعلم مقدار ما بذل من جهود وعلم ووقت وأموال قبل التوصل الى تفتيت الذرة وعلى المنوال نفسه أمضت البشرية زمناً مديداً جداً قبل أن تكتشف امكانية تفكيك المقطع الصوتي . كانت في أعماق لا شعورها تتطلع الى كتابة جديدة تخلصها من القيم المقطعية المعقدة . وهذه الرغبة الكامنة كمون الجمر تحت الرماد خرجت الى حيز الواقع وأصبحت حقيقة ملموسة عن طريق كاتب أو كتبة عباقرة قدر لهم أن يعيشوا على الشاطئ السوري في مطلع القرن الرابع عشر . وقد أتاح هذا الابداع ولادة أبجدية في غاية التبسيط لا تشتمل الا على ثلاثين حرفاً .

□ رقم الألفباء :

أدت حفريات رأس الشمرة الى اكتشاف وثائق تبين بوضوح محاولات الكاتب الأوغاريتي لتعليم حروف الأبجدية الى طلابه . لقد عثر على عدد من رقم الألفباء ونحن نطلق هذه التسمية على رقم فخارية صغيرة نقش عليها أحرف الأبجدية الأوغاريتية الثلاثين وهي مرتبة بحسب التسلسل الذي كان معتمداً آنذاك . وقد تبين أنه ، باستثناء

فروق طفيفة ، هو ترتيب الأبجدية العربية وترتيب الأبجدية اليونانية التي هي مصدر معظم أبجديات العالم . ولما كان هذا التسلسل يظهر في كل رقم الألفباء المكتشفة في الموقع فهذا يدل على أن هذه الوثائق وضعت حتماً لغاية التعليم ، فباستطاعة الطالب أن يحفظ عن ظهر قلب وبسهولة أكبر الأحرف الثلاثين اذ تعرض أمامه حسب تسلسل لا يتغير . ومما يبعث حقاً على التأثر أن نرى بأن الأطفال اليوم في عدد كبير من بلدان المعمورة يتعلمون استظهار الأبجدية بالترتيب الذي كان طلاب أوغاريت يتعلمونه منذ أربعة وثلاثين قرناً .

ان دراسة رقم الألفباء بدقة هامة جداً وممتعة . لأنها تدخلنا الى صميم العلاقة بين الكتب والطلاب أخذين بعين الاعتبار أن علماء اللغات القديمة اليوم يعرفون بسهولة ما اذا كانت الأحرف المسمارية من نقش يد ماهرة مدربة أو أنها من صنع يد قليلة الخبرة ويمكننا بالتالي أن نتتبع بطريقة حية انتقال الكتابة من كاتب متمرس الى آخر ما يزال مستجداً ومن جهة أخرى تبين هذه الوثائق ما كان يبدي الأستاذ تجاه طلابه من صبر وعناية . ان عدد رقم الألفباء المكتشفة في رأس الشجرة يبلغ اثني عشر رقماً وحسب معلوماتنا لم تكن حتى الآن موضع دراسة اجمالية (١٢) .

يوجد بينها خمسة رقم نقشت عليها ، دون وجود أي نص آخر ، الأبجدية بكاملها ولمرة واحدة . فتلک التي نراها بخط جميل كانت دون شك بمثابة نموذج أعده الكاتب للتداول بين الطلاب ، أما تلك التي تبدو كتابتها غير جيدة فهي تشير الى أنها من صنع طلاب يبذلون جهدهم في نسخ الاشارات . وهناك أيضاً رقيم سادس لا يحمل الا الأحرف الستة الأولى من الأبجدية فهو على ما يبدو عبارة عن وظيفة طالب لم تكمل لسبب أو لآخر.

لدينا من جهة أخرى رقيم يشهد بوضوح تام أنه لطالب منهمك في التدريب على الكتابة، فنراه في بادئ الأمر يعيد ، على الوجه الأول من الرقيم ، خمس مرات نسخ الاحرف العشرة الأولى من الأبجدية ، ثم ينتقل الى الوجه الثاني فيكتب على مرتين هذه الاحرف العشرة، وعندما ازدادت ثقته بنفسه أخذ ينسخ الثلاثين حرفاً دفعة واحدة . وهناك رقيم يجعلنا ندخل تماماً الى صف يجري فيه تعلم الكتابة . اننا نرى في قسمه العلوي أحرف الأبجدية الثلاثين ، مكتوبة بيد المعلم وموزعة على سطرين ، اثنان وعشرون في السطر الأول وثمانية في السطر الثاني ، بينما نجد في القسم السفلي الأحرف الثلاثين مكتوبة بيد مبتدئ والطريف أن التلميذ ، بسبب شروده قد راح ينسخ النموذج المعطى له مبتدئاً بالأحرف الثمانية من السطر الثاني ثم الاثنتين والعشرين من السطر الأول .

نشير بعد ذلك الى رقيم هو اما عبارة عن مسودة ، أو نموذج وضع من أجل الطلاب الذين لا يزالون يتدربون على كتابة الأحرف وهم يحاولون أن يتعلموا أسلوب المراسلة . فنجد في الرقيم ، على مرتين ، الأحد عشر حرفاً الأولى من الأبجدية كما نجد بعض عبارات التمني أو المجاملة التي كثيراً ما نقرأها في الرسائل المكتشفة في رأس الشجرة : فلتحفظك الآلهة وتنقذك ! . » ، فلتتحقق أغلى أمانى أخي وصديقي ، ونجد أيضاً في الرقيم ذاته فعل « أعطى » مكرراً ست مرات بصيغ مختلفة . وهناك رقيمان نجد في كل منهما نصاً باللغة الأكادية وعلى هامشه عدة محاولات لكتابة أحرف الأبجدية الأوغاريتية .

ونذكر أخيراً رقيماً رتبته، فيه أحرف أبجدية أوغاريت في أعمدة ويوجد مقابل كل حرف المقطع الصوتي الأكادي المطابق له باللفظ . انه ولا شك جدول وضع لخدمة الكتبة المكلفين بالترجمة من الأوغاريتي الى الأكادي وبالعكس ولخدمة الطلاب الذين يتعلمون أصول الترجمة .

ان الكاتب الأوغاريتي بعد أن يكون قد علم تلاميذه أحرف الأبجدية يبدأ بتعليمهم استخدامها في كتابة الكلمات وبالتالي يعلمهم كتابة الجمل المختلفة فقد عثر في رأس الشمرة على عدد من التمارين المدرسية ، نذكر منها رقيماً يتضمن أربعة حروف أوغاريتية تفصل بينها خطوط صغيرة عمودية ثم نرى كلمة مركبة من تلك الحروف فيبدو أن المعلم كان قد أملى على طلابه تلك الأحرف وكلفهم بأن يؤلفوا منها كلمة أو كلمات .

□ اللغات الأجنبية :

صحيح أن الكتبة أول ما بدأ اهتمامهم باللغة الأوغاريتية وتأمين طريقة سهلة لتدوينها وتدريب طلابهم على كتابتها . انما هناك ناحية أخرى شغلهم أيضاً وهي موضوع اللغات الأجنبية . ان أعمال التنقيب في رأس الشمرة قد أسفرت عن وثائق موضوعة بعدة لغات ، فعلاوة على اللغة الأوغاريتية المحلية ظهرت بين أنقاض المدينة وثائق بالأكادية والسومرية والهورية والقبرصية والمصرية والحثية، وسنتناول على التوالي هذه اللغات وذلك من زاوية موضوع هذا البحث ، أي اننا سنحاول معرفة وضع كتبة أوغاريت تجاه كل لغة وبتعبير آخر أن ندرك مدى اطلاعهم عليها وكفاءتهم في ميدان الترجمة . ومن الدلائل على أنهم كانوا يعيرون الموضوع اهتماماً كبيراً أنهم وفروا لأنفسهم ولطلابهم الوثائق التي يحتاجونها في أعمال الترجمة . نذكر منها القواميس التي كانت في متناول الذين يشمل نشاطهم أربع لغات . في تلك القواميس ذات اللغتين أو اللغات الثلاث أو الأربع نرى المفردات السومرية أو الأكادية أو كنهيهما والى جانبيهما الترجمة المقابلة بالهورية وبالأوغاريتية أو إحدى هاتين اللغتين ، كما أننا نذكر الجدول المقارن الذي تحدثنا عنه .

□ اللغة الأكادية :

نبدأ باللغة الأكادية ويطلق عليها أحياناً اسم اللغة البابلية مع العلم أن النصوص الأكادية تشكل مع النصوص الأوغاريتية أوفراكتشافات رأس الشمرة الكتابية عدداً . انها مدونة حسب الطريقة المسمارية الصوتية . ولدت في بلاد الرافدين ثم انتشرت ، اعتباراً من أواخر الألف الثالث في سائر بلدان الشرق الأوسط واعتمدت في المراسلات السياسية والتجارية بين مختلف الممالك كما كانت في الوقت نفسه لغة الأدب والمعرفة فهي أشبه ما تكون بالانكليزية واللاتينية في آن واحد . يتبين من المعلومات التي أسفرت عنها الحفريات أن أوغاريت لم تكن لها مع بلاد ما بين النهرين علاقات تذكر كما أنه لم يكن في أوغاريت تواجد لجالية من تلك البلاد ولذلك لم يحتج الكتبة الى اللغة الأكاديمية للتحدث مع أي

شخص . انما كانت معرفتها ضرورية لأن مراسلات العاصمة الكنعانية مع بقية الدول ، وبنوع خاص مع مصر وقبرص وبلاد الحثيين، كانت بهذه اللغة ، كما أن الثقافة البابلية كانت تخيم على الكتبة والمثقفين في أوغاريت فكانت النصوص الأكادية الدينية والأدبية والعلمية مشتهرة في سائر بلاد الشرق فكان لا بد لهم من الوقوف عليها . في يومنا الحاضر تستعمل مقتطفات من الأدب الكلاسيكي في وظائف وامتحانات الترجمة وهكذا كان شأن كتبة أوغاريت وطلابها فنراهم يحاولون ترجمة عيون الأدب الكلاسيكي لذلك الزمن ، أي الأدب البابلي . ولا شك أن القواميس التي ذكرناها والنصوص اللغوية الأكادية التي ظهرت بكثرة في رأس الشمرة تبرهن على أن دراسة اللغة الأكادية كانت تدخل ضمن تعليم وتدريب الطلاب . ومن جهة أخرى نذكر أن بعض الوثائق الدبلوماسية الهامة من معاهدات واتفاقات دولية وجدت مكتوبة على نسختين أحدها بالأكادية والآخرى بالأوغاريتية كما أننا نجد في الأضابير الرسمية رسائل موجهة الى الخارج ولكنها باللغة المحلية ، انها دون شك نسخ أو مسودات بالأوغاريتية لرسائل بعثت باللغة الأكادية وبالمقابل نجد رسائل قادمة من الخارج ومنسوخة بالأوغاريتية فهي ترجمات لوثائق جاءت من ممالك أخرى ، ورأت الادارة الملكية أن تحفظ عنها نسخاً باللغة المحلية ، ومن مظاهر تمكن كتبة أوغاريت باللغة الأكادية ومهارتهم أنه تم اكتشاف بعض الرقم تحمل نصاً أكادياً ولكنه مكتوب حسب الطريقة الأبجدية .

□ اللغة السومرية :

لقد بقيت اللغة السومرية على مدى ألف سنة ، أي من ٣٥٠٠ حتى ٢٥٠٠ ، اللغة المكتوبة الوحيدة في بلاد الرافدين وبعد ذلك كانت مقصورة على العلماء والكهنة . في أوغاريت كانت السومرية عبارة عن لغة ميتة ، على حد تعبير الغرب ، أي انها لم تكن تستعمل للمكالمة . بل نراها في نصوص ذات طابع علمي ونصوص أدبية ودينية وسحرية . ان وجودها في القواميس والنصوص اللغوية دليل على انها كانت ضمن برامج التدريس .

□ اللغة الحورية :

الى جانب الكنعانيين كان يعيش في أوغاريت عدد لا بأس به من الحوريين وهو شعب انحدر من شمالي شرقي سورية وقطن الساحل في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد . انه يكتب ويتكلم اللغة الحورية . وهذه اللغة كما كنا نعرفها قبل اكتشافات رأس الشمرة كانت مكتوبة بالاشارات المسمارية الصوتية كما هو الحال في الأكادية . غير أننا نرى في رأس الشمرة ، علاوة على النصوص المكتوبة بهذه الطريقة ، نصوصاً حورية مكتوبة بالاشارات المسمارية الأبجدية التي ابتكرتها أوغاريت (١٣) . السؤال الذي يطرح : هل أراد كتبة كنعانيون أن يطبقوا على اللغة الحورية هذه الطريقة الأكثر سهولة أم أن كتبة من أصل حوري تعلموها من زملائهم الكتبة الكنعانيين؟ نلاحظ أن الرقم الحورية الأبجدية هي بصورة عامة نصوص طقسية كانت تتلى أو تنشد في المعابد ونصوص هي عبارة عن لوائح بأسماء

الآلهة الحوريين • كما نرى رقماً تتضمن في آن واحد نصاً حورياً أبجدياً ومقطعاً بالأوغاريتية الأبجدية • لذلك نميل الى الاعتقاد بأن هذه النصوص وضعت من قبل كتبة حوريين • غير أن القواميس التي ذكرناها تدل على أن دراسة اللغة والكتابة الحورية كانت هي أيضاً بين الأمور التي يتناولها التعليم في أوغاريت فكان الكتبة المحليون وطلابهم يتدربون على كتابة اللغة الحورية وكانوا حتماً يتكلمونها بسبب الجالية التي تعيش بينهم •

□ اللغة القبرصية :

هناك دلائل أثرية عديدة أسفر عنها التنقيب وكذلك عدد من الوثائق المكتوبة تشير الى وجود جالية قبرصية ، لا يعرف حجمها بالضبط • كانت تقطن أوغاريت وفي الحي الكائن قرب المرفأ المطابق للخليج المعروف اليوم باسم « مينة البيضاء » وكذلك توجد دلائل عديدة عن علاقات وثيقة ومستمرة بين الجزيرة والعاصمة الكنعانية فقد عثر في رأس الشمرة على رسائل ووثائق مختلفة واردة من قبرص وهي مكتوبة طبعاً باللغة الأكادية المستعملة في المراسلة بين الدول •

لم تسفر الحفريات عن وثائق مدرسية أو لغوية تبين أن الكتبة الكنعانيين المحليين أرادوا أن يتعلموا اللغة القبرصية غير أننا نلاحظ أن بعض الوثائق المكتوبة بالقبرصية (١٤) قد اكتشفت في دواوين الأضابير أو في مكتبات ، أي في الأماكن التي كان الكتبة الأوغاريتيون يتمركزون فيها ، ومن جهة أخرى يوجد رقيم موضوع بالقبرصية يدل على يد غير معتادة على إشارات هذه اللغة مما جعل بعض العلماء يعتقدون أنها من صنع كاتب كنعاني ، زد على ذلك أن أحد الرقم القبرصية المكتشفة هو عبارة عن قائمة أسماء من النوع الدارج في أوغاريت بعضها أسماء أعلام محلية على الأغلب • كل هذا يدل على أن كتبة أوغاريت كانوا يلمون بعض الشيء بالكتابة القبرصية • ونذكر هنا أنه في موقع هالة سلطان تيكه ، قرب لارنكا ، في قبرص عثر مؤخراً على كأس من الفضة تحمل كتابة بالأوغاريتية • فهل يمكن أن نتصور أن كتبة قبرص تأثروا بالطريقة الأبجدية المستعملة في الساحل السوري المقابل • هذا ما يمكن أن توضحه يوماً الحفريات التي تجري في أوغاريت أو في قبرص •

□ اللغة المصرية :

ليس لدينا أي برهان على وجود جالية مصرية في أوغاريت (١٥) • ان الحفريات أسفرت عن عدد كبير من القطع الفنية تحمل طابعاً مصرياً انما نرى العلماء متفقين على أنها إما قطع مستوردة أو قطع من صنع فنانين محليين تأثروا بالفن المصري • ومن جهة أخرى عثر في رأس الشمرة على عدد كبير من الكتابات الهيروغليفية المصرية • ومعظمها منقوش اما على هدايا مرسله من قبل البلاط الفرعوني الى البلاط الأوغاريتي أو على هبات الى معابد أوغاريت • ولدينا بعض الوثائق والأدلة التي تشهد على تواجد مصري

والو على نطاق محدود . نذكر منها الأمور التالية : نعلم أن ممثلاً للبلاط انفرعوني كان يسكن منزلاً فخماً قريباً من قصر أوغاريت الملكي وأنه كان يتعاطى بعض الأعمال التجارية . النصوص تتحدث عن طبيب مصري استدعاه أحد ملوك أوغاريت وعن مواطن مصري ابتاع منزلاً من الملك وعن مصريين كانوا يتعاطون تجارة منتوجات أوغاريتية من زيت وخمر ، كما أننا نعلم أن إحدى أميرات وادي النيل تزوجت من ملك أوغاريتي . بقي أن نتساءل إذا نتج عن هذه التأثيرات وهذه الاتصالات المحدودة انعكاس على نشاط الكتبة الأوغاريتيين . كان هؤلاء يشاهدون النصوص المصرية المحفورة على الهبات المقدمة إلى المعابد ، ولا شك أنهم أخذوا بجمال الاشارات الهيروغليفية التي تمتاز بطابع فني . فهل خطر ببالهم أن يحاولوا تقليدها ؟ ... ان معطيات التنقيب الأثري في هذا المجال قليلة جداً لا بد أن تأتي على ذكرها . هناك ثلاث كتابات هيروغليفية يعتقد العلماء اليوم أنها من صنع كاتب أوغاريتي ، الأولى منقوشة على قاعدة صغيرة اكتشفت في القصر الجنوبي والثانية منقوشة على نصب وجد في معبد الإله بعل ، والثالثة حفرت على سيف ظهر في الحلي الممتد شرقي القصر الملكي .

□ اللغة الحثية :

في الفترة التي نحن بصدددها ، أي في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، كانت أوغاريت تحت سيطرة الامبراطورية الحثية ورغم مقاومة بعض ملوكها لهذا النفوذ كان الحثيون يلعبون دوراً هاماً في حياة العاصمة الكنعانية . الغريب والحالة هذه أن يكون التأثير الحضاري قليلاً جداً . لم تسفر الحفريات عن قطع فنية تدل على تأثير حثي يذكر . والعلاقات التجارية كانت مقصورة على بعض القوافل وأحياناً على نقل بعض المواد الغذائية في مراكب من ساحلنا إلى سواحل الأناضول . في أوغاريت تم اكتشاف منزل شخص حثي اسمه « باتيلوا » يعتقد أنه كان سفير البلاط الحثي أو أحد ممثليه . الوثائق الرسمية المتبادلة بين العالم الحثي وأوغاريت موضوعة كلها باللغة الأكادية الدولية مع العلم أن الرسائل الواردة تحمل خاتم السلطة الحثية وهو موضوع بالكتابة الهيروغليفية الحثية . يجب الإشارة إلى أنه لم يعثر في دواوين الأضابير وفي المكتبات على قواميس أو أية وثائق مدرسية تدل على أن كتبة أوغاريت كانوا يتعلمون اللغة الحثية . نذكر فقط رقيماً يحمل نصاً أدبياً موضوعاً بالكتابة الحثية المسمارية غير أن العلماء يعتقدون أنه رقيم مستورد . على كل حال فليس من المستحيل أن يكون كتبة أوغاريت قد اهتموا بعض الشيء بلغة دولة كانت سلطتها تهيمن على مقدرات العاصمة الكنعانية (١٦) .

□ الكتابة والثقافة :

لا تشكل الكتابة هدفاً في حد ذاتها ، انها في النهاية ليست غير أداة لنقل الأفكار والمعارف . غير أن الوثائق المكتوبة المكتشفة في أطلال رأس الشمرة لا تقدم لنا بصورة مباشرة وجلية المعلومات التي نريدها عن الثقافة العامة في أوغاريت ونعني بذلك مجمل معارفها في مختلف الميادين وبالتالي لا ندري الدور الفعلي الذي كانت تلعبه الثقافة العامة في مجال التعليم والتدريس . ومن المؤسف أن هذا الموضوع لم يعالج حتى الآن بطريقة

منهجية رغم أن هنالك اليوم آلاف المؤلفات عن مكتشفات رأس الشمرة فمن المرغوب فيه القيام بعمل دؤوب يساعد بين أكاداس الرقم المنبوذة حتى الآن ، على اكتشاف كل ما يمكن أن يجلو لنا هذا الموضوع ، وسنقدم هنا لمحة مختصرة عن أهم النواحي التي تبرزها الرقم المكتشفة .

سنتكلم أولاً عن القوائم وقد عثر منها في رأس الشمرة على عدد لا يحصى . يتعلق معظمها بالتنظيم الإداري والحياة الاقتصادية . ولكن هناك قوائم لها أهمية كبرى في موضوعنا هذا فهي تبدو لنا كمفكرات وفيش FICHES شبيهة بالتي يستخدمها اليوم علماءنا لتؤمن لهم بسرعة المعلومات التي يحتاجونها أثناء دراساتهم . نذكر منها رقيماً يتضمن خمسمئة سطر على غاية من الأهمية لأنه نوع من موسوعة فنجد فيه تعداد الأسماك والطيور والنباتات والمنسوجات والأقمشة والأحجار وما شابه ذلك . هناك أيضاً قوائم تعدد آلهة أوغاريت وقائمة تعداد الآلهة الحورية . ونذكر بنوع خاص رقيماً يتضمن جدولاً بالآلهة السومرية وتجاه كل إله نرى ما يقابله من آلهة عند الأوغاريته والحوريين فتلك لعمري وثيقة عن الديانة المقارنة تعود في القدم إلى ما ينوف على ثلاثة آلاف سنة . ومن القوائم التي كانت تستعمل كمفكرة نذكر عدة رقم سمحت بوضع جدول بمقاييس الأوزان والاستطاعة والمساحة .

عثر أيضاً بين الأطلال على بعض النصوص الطبية ، علماً أن الطب في ذلك الوقت كان على ارتباط وثيق وتداخل كامل مع السحر ، انما نستطيع أن نتعرف بواسطتها على عدد من الوصفات الطبية وبواسطة نصوص الابتهالات والأدعية السحرية نتعرف أحياناً على بعض الأمراض والأدوية . من بين الأمراض يرد ذكر الصداع والانفلونزا والصرع والزكام والدوار ومرض الأسنان والرئة والبطن والعيون وكذلك اعتلال العضلات والجلد . أما العلاجات فأكثرها نباتية ويمكن أن نطلع من أحد الرقم على المعالجة بواسطة حمام بخار . وهناك نص يذكر بوضوح وجود أطباء في أوغاريت كما نذكر نصاً وجد بأربع نسخ نقش عليها تعليمات العناية الواجب اتباعها تجاه الخيول المريضة .

النصوص السحرية المتعلقة بعلم الفلك لا تبين لنا بدقة معلومات الأوغاريتهين الفلكية انما يوجد نص فسر كأنه تلميح لكسوف الشمس . أما الموسيقى فلدينا عدة رقم مكتوبة باللغة الحورية تتضمن التنويط (أوالتدوين) الموسيقى لبعض الترانيل والأناشيد الدينية (١٧) . أما علم الحقوق في أوغاريت فيمكن التعرف عليه عن طريق عدد كبير من النصوص القانونية تم اكتشافها في جناح من القصر الملكي (١٨) .

المعروف أنه تم اكتشاف عدد من الأساطير والملاحم (١٩) في بناء الكاهن الأكبر ، قرب معبد الآله بعمل وكانت كما ذكرنا متوارثة شفوية من جيل إلى جيل فتم تدوينها في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد من قبل كاتب يرد اسمه في بعض الرقم ولا نستطيع بما لدينا من معلومات أن نعرف إذا كان مجرد ناسخ وضع تلك القصائد حرفياً

كما تلقاها أو أنه كان ينظم تلك الملاحم والأساطير بأسلوب أدبي ، وهي بالفعل قصائد ذات قيمة أدبية أكيدة .

وأخيراً نذكر الانتاج الأدبي . لقد عثر في رأس الشمرة على عدد لا بأس به من النصوص الأدبية من قصائد وأدعية ومجموعات حكم ونصائح . إلا أن معظم هذه النصوص يعود الى الأدب البابلي أو انها ، على أقل تقدير ، تستمد ايحاًاتها من بلاد الرافدين ، وقد ذكرنا أنها كانت تستخدم في أعمال الترجمة . انما يوجد نص واحد يمكن حتى اشعار آخر ان نعتبر أنه أوغاريتي اذ لم يكتشف ما يقابله في الأدب البابلي . انه مجموعة من الحكم والأقوال وجدت مكتوبة بثلاث نسخ ويبدو أن هذه النسخ تعود لثلاثة طلاب في صف الانشاء الأدبي طلب اليهم مناقشة الوجود الانساني بالاستناد الى أقوال وأمثال دارجة وهذا مقطع من النص المذكور:

- لا تدرك اليد ما بعد السماء
- لا يدرك أحد عمق غور الأرض
- حياة بلا نور ، فماذا تزيد على الموت ؟...
- مقابل سعادة يوم ، أيام من الدموع
- وها هي السنة تجري وفيها ألف علة
- الناس لا يعلمون بأنفسهم ما يفعلون
- معنى أيامهم ولياليهم كامن عند الآلهة

وفي الختام نذكر نصاً تم اكتشافه في رأس الشمرة يبين تماماً أهمية الكتابة والمعرفة في المجتمع الأوغاريتي . انه عبارة عن دعاء كتب بصيغة رسالة موجهة من كاهن الى أحد الآلهة يطلب فيه مساعدة تلميذه ومما جاء في النص المذكورة :

لا تظهر في عظمتك عدم الاهتمام بالقضية التي أستعطفك من أجلها . بهذا التلميذ الفتى الجالس أمامك لا تظهر عدم الاهتمام اكشف له أي سر في فن الكتابة ، العد ، المحاسبة ، أي حل ، اكشف له اكشف له اذن الكتابة السرية أعط لهذا التلميذ الفتى ، القصب المبرى والجلد والفخار اذن لا تهمل شيئاً من كل ما يتصل بفن الكتابة » .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - حسب آخر جرد تم لرقم ايلا ، قبل أن توضع في متحف ادلب ، أنها موزعة على الشكل التالي : ٢٠٠٠ رقيما كاملا ٦٠٠٠ رقيما ناقصا ، ٧٠٠٠٠ كسر رقم .
- ٢ - كان يستنتج من المراجع السابقة أن أعمال التنقيب في ماري قد أسفرت على ٢٥٠٠٠ وثيقة مكتوبة بينما نلاحظ أن مدير الحفريات الجديد يذكر ١٥٠٠٠ رقيما (راجع جان مارغرون : « ماري » ، الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٨٣ : ص ٢٤٠ . ان رقم ماري الموجودة حاليا في المتحف الوطني بحلب ستنتقل قريبا الى متحف دير الزور الجديد .
- ٣ - ان المصادر كانت ، حتى الآن ، تذكر أن هذا الموقع يقع على بعد حوالي عشرة كيلو مترات شمالي اللاذقية . ان هذا الرقم اصبح غير صحيح بعد التعديلات التي طرأت مؤخر على الحدود الادارية للمدينة . فقد أدت هذه التعديلات الى امتداد اللاذقية شمالا على طول الساحل حتى رأس ابن هاني (راجع كتابنا : « المختصر في تاريخ اللاذقية » ، اللاذقية ١٩٨٤ : ص ٥٨ - ٦٠) وهكذا صارت اوغاريت تقوم على مسافة ثلاثة كيلو مترات فقط من الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، وبالتالي نستطيع أن نقول من الآن فصاعدا أن رأس الشمرة تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات شرقي اللاذقية .
- ٤ - اذا أردنا معرفة مدى الأهمية التي توليها الأوساط العلمية في العالم لاكتشافات رأس الشمرة ، فيجب أن نعلم :
- ان المؤلفات والدراسات حولها تعد بالآلاف ، انظر :
M. DIETRICH, O. LORETZ, P. R. BERGER, J. SANMARTIN : Ugarit-Bibliographie 1928-1966, 4 vol. Kevelaer 1973.
- ان مجلة علمية تصدر في مدينة مونستر بالمانيا منذ عام ١٩٦٩ اسمها Ugarit-Forschungen وهي مخصصة باكملها للبحوث الاوغاريتية ، وان نشرة عناونها Ugaritic Studies تصدر عن جامعة كالغار في كندا منذ سنة ١٩٧٣ وتقدم لقرائها بانتظام لمعة موجزة عن آخر المطبوعات الصادرة حول رأس الشمرة .
- ان اللغة الاوغاريتية تدرس حاليا في عدد كبير من جامعات العالم ، انظر النشرة السابق ذكرها ، العدد ١١ ، تشرين الاول ١٩٧٦ .
- ٥ - حسب آخر جرد للوثائق المكتوبة المكتشفة في رأس الشمرة يبلغ عددها ٢٠٢٤ وثيقة منها ما هو محفوظ كاملا ومنها ما هو ناقص ومنها ما هو عبارة عن كسر صغيرة . خلافا لنصوص ايلا وماري المنشورة كل منها في مجموعات متسلسلة منظمة ، ان نصوص رأس الشمرة قد نشرت مع الأسف بشكل عشوائي في مؤلفات ومجلات مختلفة ، انما نذكر أن قسما كبيرا منها قد نشر في كتاب :
A. HERDNER: Corpus des textes en cunéiformes alphabétiques de Ras Shamra, (1929-1939), Paris 1963 وفي سلسلة Palais Royal d'Ugarit (المجلد الخامس والمجلد السابع) .
- ٦ - راجع مقالنا : « الحياة الثقافية والتعليم في اوغاريت » ضمن كتابنا : أبحاث تاريخية وأثرية ، دمشق ١٩٨٧ ص ٨٣ - ١١٦ .
- ٧ - بالنسبة لكتبة اوغاريت راجع :
Jean NOUGAYROL : Palais Royal d'Ugarit III, Paris 1955 : p. XXXIV - XXXIX; W. J. HORWITZ : The Ugaritic Scribe, Ugarit-Forschungen 11, 1979 : 389-394.
- ٨ - نفضل استعمال هذه التسمية التي تشير الى أهم مميزات هذه اللغات عوضا عن التسمية الرائجة منذ سنة ١٧٨١ ، أي « اللغات السامية » ، والتي سببت ولا تزال تسبب بعض الالتباسات . راجع :
H. FLEISCH : Introduction à l'étude des langues sémitiques. Paris 1947:20-22

٩ - راجع :

F. RENFROE : Methological considerations regarding the use of Arabic in Ugaritic Philology.
Ugarit-Forschungen 18, 1986 : 33-74.

١٠- توصلنا الى هذا الرقم استنادا الى الفهارس المختلفة الموجودة في :

C. H. GORDON : Ugarit Textboox, Rome 1965 : 347-522.

11 — Elias G. BITTAR : A Comparative Semitic Study (with special reference to Arabic, Hebrew and Syriac) of the Linguistic Features of the Ugaritic Texts. University of Wales 1982 : 124-130, 140-153, 193-200.

انظر أيضا جون هيلي : « الأوغاريتية ودراسات اللغات السامية » ، مجلة المعرفة العدد ٢١٣ ، تشرين الثاني ص ١٢٠ .

١٢- ان رقم الألفباء تحمل ، حسب الترتيب المتبع في نصوص رأس الشجرة ، الأرقام التالية :
RS 10.081, 12.63, 23.492, 24.288, 19.31, 15.71, 19.40, 24.281, 16.265, 20.148+21.69 20.164, 19.159.

ان الرقيم الأول معروض في متحف اللوفر في باريس ، أما الأحد عشر الباقين فهي موجودة في المتحف الوطني بدمشق وفي المتحف الوطني بحلب .

١٣- النصوص الحورية منشورة في :

E. LAROCHE : « Les textes hourrites », Palais Royal d'Ugarit III, Paris 1955 : 325-385;
« Documents en langue hourrite provenant de Ras Shamra » Ugaritica V, Paris 1968 : 447-644.

١٤- النصوص المكتوبة باللغة القبرصية المكتشفة في رأس الشجرة منشورة في :

E. MASSON : Cyprominoica Göteborg 1974 : 34 et 38.

١٥- بالنسبة الى علاقة أوغاريت بمصر راجع :

J. et E. LAGARCE : « Le chantier de la maison aux albâtres » Syria 51, 1974 : 5-24; voir également C. SCHAEFFER : Ugaritica 3, Paris 1956 : 164-178.

١٦- بالنسبة للوثائق العثية ، راجع :

16 — E. LAROCHE : « Textes de Ras Shamra en langue hittite », Ugaritica V, Paris 1968: 769-784; C. SCHAEFFER, Ugaritica III, Paris 1956 : 1-96.

١٧- راجع راوول فيتالي : « اللوحة الأوغاريتية ح/٦ ، تفسير تنويطها الموسيقي » ، العوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٢٩ - ٣٠ ، ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٧٣ - ٧٧ .

١٨- راجع :

G. BOYER : La place d'Ugarit dans l'histoire de l'ancien Droit oriendans Palais Royal d'Ugarit III. Paris 1955 : 283-306.

١٩- لقد صدر حتى الآن عدد كبير من ترجمات ملأحم وأساطير رأس الشجرة الى لغات أجنبية مختلفة ، نكتفي هنا بذكر الترجمتين الى اللغة العربية :

- نسيب وهيبة الغازن : « أوغاريت ، أجيال ، أديان ، ملأحم ، بيروت ١٩٦١ .

- أنيس فريضة : « ملأحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشجرة) » بيروت ١٩٨٠ .